مجلة تسليم
Journal Homepage: https://tasleem.alameedcenter.iq
ISSN: 2413-9173 (Print) ISSN 2521-3954 (Online)

تَشَكُّلُ المَعَانِي فِي خِطَابِ السَّيِّدَةِ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ ﵄. دِرَاسَةٌ فِي الفَنِّ البَلَاغِيِّ وَالأَثَرِ القُرْآنِيِّ

روعة عمر أحمد أقرع [١]

١ جامعة حلب / جامعة حلب / قسم اللُّغة العربيَّة، سوريا؛

Nesrine.sh.91@gmail.com

دكتوراه في اللغة العربية / مدرس

تاريخ التسلّم	تاريخ القبول	تاريخ النشر
٢٠٢٥/١/٢٠	٢٠٢٥/٣/١٢	٢٠٢٥/٣/٣١

المجلـــد (٢١) العـــدد (٣٣)
رَمَضَان ١٤٤٦هـ . آذار ٢٠٢٥ م

DOI:
10.55568/t.v21i33.83-98

CC BY NC

مُلَخَّصُ البحْث:

لقد خصّ الله عزّ وجلّ أهل البيت بمزايا عديدة، فضلًا عن العلم الذي وهبهم الله إيّاه. ولا ينكر كلّ من اطّلع على خطبهم الحسَّ الدّلالي والبيانيَّ العالي. فيرى فيها المواعظ والدروس الجامعة والفوائد المانعة، وكل ذلك بألفاظ ومعانٍ موجزةٍ مؤثّرةٍ تخدم ما يروم إليه موضوع الخطبة.١

من هنا، عني هذا البحث بدراسة تشكل المعاني عند سيدة من سيدات آل البيت رضي الله عنهم أجمعين، وهي فاطمة الزهراء ﵄. فقد جمعت في خطبها مضامين عديدة، فتعدّدت المعاني المتشابكة التي استخدمتها في خطبها.

وبرز الفن البلاغي العالي عند فاطمة الزهراء ﵄ من استخدامٍ لظواهر بلاغيّة ساهمت في إيصال المعنى المرام، ناهيك عن استثمار التراكيب الإسلامية مما شكّل مستويات مختلفة في التنظيم والتّأليف من العبارات التي صيغت بشكلٍ فنيٍّ متّصلة ببعضها البعض، وهذا ما يدلّ على الثروة الممتزجة بالثقافة الإسلامية التي تمتلكها الزهراء. والتي ساهمت في أداء المعنى.

الكلمات المفتاحية: فاطمة الزهراء – الخطبة – القرآن الكريم– البلاغة – التضمين.

Meanings Formation in Discourse of Seida. al-Zahra : A Study in Rhetorical Art and Quranic Influence

Raw'ah Omar Ahmed Aqra' [1]

1 University of Aleppo/ College of Education/ Department of Arabic, Syria;

Nesrine.sh.91@gmail.com

PhD. in Arabic Language/ Lecturer

Received:	Accepted:	Published:
20/1/2025	12/3/2025	٢٠٢٥ /٣ /٣١

DOI: 10.55568/t.v21i33.83-98

Volume (**21**) Issue (**33**)

Ramadhan 1446 AH March 2025 AD

Abstract:

Allah, the Almighty bestow upon the Ahl al-Bayt numerous virtues, and the knowledge granted to them. Anyone who examines their sermons will recognize their high semantic and rhetorical sense, finding in them comprehensive lessons, effective benefits, and all of this conveyed through concise and impactful words and meanings that serve the purpose .of the sermon

This research is concerned with studying the formation of meanings in the speeches of Fatima al-Zahra, peace be upon her, a lady from the Ahl al-Bayt. Her sermons encompass various themes, resulting in a multitude of interconnected meanings. The high rhetorical art is evident in her use of rhetorical devices that contribute to conveying the intended meaning, in addition to employing Islamic structures that form different levels of organization and composition of artistically crafted phrases connected to each other. This indicates the .wealth of Islamic culture possessed by her, which contributed to the delivery of meaning

Keywords: Fatimah Al-Zahra - Sermon-The Glorious Quran- Rhetoric - Inclusion

المقدِّمة:

تعدُّ الخطابة أحد أهمَّ الفنون العربيَّة، ورافدًا مهمًّا من روافد الأدب العربيِّ. فقد برز على مرِّ العصور خطباء عرفوا بالحسِّ البلاغيِّ العالي، وإن كان للخطابة درجاتٌ فستكون الدرجة الأولى من نصيب آل البيت عليهم السلام؛ لما عرف عنهم من الدلالات والإشارات والقدر الكبير من الفصاحة والمقدَّرة الكلاميَّة المتضمِّنة للحجج والبراهين.

ومن تلك الخطب التي تميَّزت بالبيان العالي خطب السيِّدة فاطمة الزهراء ﷺ، فقد حوت خطبها على العبر السامية والمواعظ العالية، ودروسًا جامعةً وفوائد جمَّةً لتعاليم الدّين الإسلاميِّ وكلُّ ذلك بلغة معبِّرة ومعانٍ واضحةٍ مؤثِّرةٍ.

وليس بغريب عن السيِّدة فاطمة الزهراء ﷺ فهي قدوةٌ في الفصاحة والبلاغة والإعجاز، إذ اغترفت من معين القرآن وعلومه، فحملت خطبها بكلامها وعباراتها مختلف الفنون البلاغيَّة والموضوعات البيانيَّة. واشتملت خطبها على مواضيع متعدِّدة، غلب عليها الأسلوب الواضح الفريد، ملتزمةً بالبيان العالي الذي يأخذ بمجامع القلوب، فغايتها هي التأثير في الناس، وكان القرآن هو المصدر الذي استقت منه جلَّ معانيها وألفاظها، فكانت آياته لا تفارق خطبها.

وقد جاء هذا البحث لدراسة تشكُّل المعاني في خطب السيِّدة فاطمة الزهراء ﷺ، والأثر القرآنيِّ البارز فيها.

وسعى البحث أيضًا إلى بيان أهمِّ الظواهر البلاغيَّة التي انتشرت في خطبها، فكان المنهج الوصفيِّ التحليليِّ الأنسب في الدراسة، وذلك من أجل وصف تلك المظاهر وتحليلها وبيان القصد منها.

فارتسمت خطَّة البحث على مبحثين كان الأوَّل بعنوان: دلالة الظواهر البلاغيَّة في خطب فاطمة الزهراء ﷺ، شمل فيه دراسة خمسة ظواهرٍ بلاغيَّةٍ. وأمَّا المبحث الثاني فكان بعنوان: مظاهر التأثُّر بالقرآن الكريم ومضامينه، وتضمَّن ثلاث أفكار وهي:

إبراز القيم الإسلاميَّة.

بيان دور النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في هداية الأمَّة.

التحذير من ترك النصوص السّماويَّة.

أوَّلاً: دلالة الظواهر البلاغيَّة في خطب فاطمة الزهراء ﷺ:

إنَّ خطب فاطمة الزهراء ﷺ تعدُّ نموذجًا فريدًا للخطب الدِّينيَّة، تحضُّ المتلقِّين فيها على التمييز بين الخيط الأبيض والخيط الأسود، فاعتمدت على دلالة الظواهر البلاغيَّة التي تخدم ما قدَّمته في خطبها.

ظاهرة التوازي التركيبيّ:

إنَّ التوازي بين التراكيب في الخطب يحقِّق مجالاً تنتمي إليه العلامات من حيث المعاني والدلالات فضلًا عن إحداث إيقاعٍ هادئٍ جميلٍ، يجعل السامع يميل إلى التأمُّل وخاصَّة عندما تكون المعاني الَّتي تتضمَّنها الجمل تؤثِّر في المتلقِّي، فيصير إلى اجتماع المعنى والإيقاع لصالح النصِّ. فهو "شكلٌ من أشكال التنظيم النحويِّ يتمثَّل في تقسيم الحيِّز النّحويِّ على عناصر متشابهة في الطول والنغمة والبناء النحويِّ، فالكلُّ يتوزَّع في عناصر أو أجزاء ترتبط نحويًّا وإيقاعيًّا فيما بينها"[١]

ومن أمثلته قولها عليها السّلام: "كتاب الله الناطق، والقرآن الصادق، والنور الساطع، والضياء اللامع، بيِّنة بصائره، منكشفة سرائره"[٢]

إنَّ إمعان النظر في هذه البنى الدلاليَّة المتوازنة يبيِّن لنا اشتغال هذه الظاهرة فيها، فقد توازنت التراكيب الثلاث توازنًا تامًّا على النّحو الآتي: القرآن الصادق، والنور الساطع والضياء اللامع. فكلُّ تركيب نحويٍّ يتضمَّن الموصوف (القرآن، النور، الضياء) والصفة (الصادق، الساطع، اللامع) في البنية السيميائيَّة.

ناهيك عن هذا التوازي في التراكيب الذي أضفى إيقاعًا جماليًّا عليها، فإنَّ هذه الجمل تحمل دلالات ومعانٍ ضمنيَّة متشابهةٍ، متقاربة مع بعضها البعض، فالمعنى الذي تحمله معنى واحد وهو التأكيد على أهمِّيَّة القرآن الكريم، وخاصَّة في صدد موقف فاطمة الزهراء ﷺ فهي بحاجة إلى التذكير بالأحكام الموجودة فيه، فكلُّ الحقائق منكشفة ظاهرة فيه، ولكن لا يدركها إلَّا العاقل المتدبِّر. فالتوازي سيجذب انتباه المتلقِّي وذلك سيعمِّق درجة التلقِّي والفهم لديه.

وفي شاهد آخر تتابع فاطمة الزهراء ﷺ التوازي في التراكيب، فقولها وهي تصف أحوالهم قبل

١ الكبيسي, طراد. جماليات النثر الفني (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامّة، سلسلة الموسوعة الصغيرة, د.ت.), ٢٣.
٢ الشيرازي, سعد. الخطبة الفدكية وتحليل دلالاتها (بيروت: دار المرتضى, د.ت.), ١٣٠.

مجيء الإسلام، "مذقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام"[٣].

استعملت السيِّدة الزهراء ﷺ، هنا أربع جملٍ متوازية توازيًا تامًّا لتكوين المعنى السيميائيِّ، فقد كانت آليَّة التوازي هي المضاف والمضاف إليه، فنرى التشابه التركيبيِّ بين الجمل، فضلًا عن التشابه الدلاليِّ بينها، فهي تبيِّن حال المستمعين قبل الإسلام، وتصف حالة الذلِّ والهوان التي كانوا فيها.

واللافت في الشاهدَين السّابقين تلاؤم للألفاظ بعضها مع بعض، وهذا ما يضيف إلى التعبير دقَّة أكثر، وهو ما وصفه الجُرجانيُّ بحسن الرصف أي "أنْ توضع الألفاظ في مواضعها وتمكَّن في أماكنها"[٤] وتكمن أهمِّيَّة الألفاظ من حيث كونها أداة التّعبير الأولى، وإذا لم تخضع لمعايير فنِّيَّة فإنَّها بلا شكٍّ ستفقد قيمتها، وممَّا نجده في خطب الزهراء ﷺ هو التّنوُّع للألفاظ الذي حقَّق إفادات كبيرة لدلالاتٍ مختلفةٍ.

وتظهر لنا في الشواهد السّابقة أيضًا ظاهرة الإطناب، فقد زادت الزهراء ﷺ اللَّفظ على المعنى، وقد وضّحنا أنَّ المعاني الدّلاليَّة تخدم معنى واحدًا، والقصد منه هو الإيضاح وتقوية المعنى وتثبيته في ذهن السّامع، وهذه الزيادة لا تعدُّ تطويلًا؛ بل فائدة لتأكيد المقصد للمخاطب. فكلُّ لونٍ بلاغيٍّ له غايةٌ، وأغراضٌ من ورائه.

ظاهرة التّضمين القرآنيِّ:

لا يخفى عن المتكلِّم والخطيب أثر القرآن الكريم في نفوس المسلمين، وما تحقّقه آياته من تأثير دلالي في المتلقِّي. فهو المصدر الأساس لانتقاء المعنى الرّاقي واللفظ الإيحائيِّ فيتفاعل المتلقِّي مع النصِّ الممتزج بكلامه ﷻ.

"إنَّ الخطاب القرآنيَّ يجمع بين قوَّة التّأثير البلاغيِّ وشموليَّة المعاني، ممَّا جعله مصدر إلهام في الخطابة العربيَّة"[٥]، والخطيب البليغ لا يتوقَّف عند تدعيم رأيه بالآيات القرآنيَّة، وإنَّما يحاول أيضًا الاستفادة من أسلوبه الذي يقوم على الدِّقَّةِ والوضوحِ والسُّموِّ في المضمون، ناهيك عن الاحتجاج بالأدلَّة والبراهين. فأنسبُ معجم يمكن أن ترفد منه الخطب هو القرآن الكريم، يمتزج فيه السياق القرآنيُّ وسياق الخطبة المبنيَّة على هدفٍ مسبقٍ وبذلك ترقى الخطبة إلى مستوى خطاب القرآن. ومن

٣ السبحاني, جعفر. الخطبة الفدكية نص وتحليل (قم: مركز النشر الإسلامي, د.ت.), ٧٨.
٤ الجرجاني, عبدالقاهر. دلائل الإعجاز (مصر: المطبعة المحمودية التجارية, د.ت.), ٤٤.
٥ الخطيب, عبدالكريم. الإعجاز البياني للقرآن (بيروت: دار المعرفة, ١٩٨٠), ٣١١.

تربَّت في بيت النُّبوَّة ليس بغريبٍ عنها أن تصل إلى تلك الدرجة من البيان العالي. وتدعِّم خطبها بآيات القرآن. ففي قول السيِّدة الزهراء ﷺ: "قد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتِّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم"[٦]

تتابع السيِّدة فاطمة الزهراء ﷺ في خطبها التّذكير بفضل والدها النَّبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وتذكِّرهم برحمته ورأفته بحالهم، فضمَّنت قولها السابق الآية القرآنيَّة في سورة التوبة الآية رقم ٢٨

وتتابع السيِّدة الزهراء ﷺ خطبها جميعًا على النهج نفسه، وما هو إلَّا دليل على الارتباط الوثيق بينها وبين الكتاب العظيم الذي يمثِّل مرجعًا أصيلًا في ثقافتها، ففي قولها: "فاتَّقوا الله حقَّ تقاته ولا تموتُنَّ إلَّا وأنتم مسلمون"[٧] ضمَّنت الآية الواردة في سورة آل عمران. والتضمين في خطبها يعطي بعدًا دلاليًّا قويًّا، ويدعِّم حججها وموقفها، فالنّصُّ السابق يشير إلى أهمِّيَّة اتِّقاء الله في عبادته، وأن يبقوا على طريق الحقِّ والهداية لا يحيدون عنه. فسياق الآية يتلاءم وسياق الخطبة عند السيدة الزهراء ﷺ وما لقيته من ظلم وجور وأذى، ففعلهم مجافاة للإيمان، بعيد عمَّا أراده الله ورسوله.

وهكذا وظّفت السيِّدة فاطمة الزهراءﷺ القرآن الكريم من آيات وألفاظ لمحاججة المتلقِّين، وهذا دليل على التربية القرآنيَّة والسعة الثّقافيَّة التي تحلَّت بها، وقدرتها على الجمع بين المفردات القرآنيَّة ومقاصدها التي ترمي إليها في خطبها.

ظاهرة التقنيَّات التصويريَّة:

الكناية:

إنَّ العرف السائد عند أهل البلاغة أنَّ الكناية أفصح من التصريح وأبلغ، فهي توصل المعنى إلى المتلقِّي بطريقةٍ غير مباشرة، ممَّا يدعو إلى التّأمُّل والتّفكُّر والتّدبُّر.

فالمتكلِّم يريد "إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللَّفظ الموضوع له في اللُّغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به إليه، ويجعله دليلًا عليه"[٨]

ففي قولها ﷺ: "وكنتم على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب ونهزة الطامع وقبسة العجلان وموطئ الأقدام".[٩]

٦ الفضل, عبدالهادي. بلاغة فاطمة الزهراء ﷺ (بيروت: دار الهادي, د.ت.), ١٦٣.
٧ الكافي, محمد رضا. سيميائية خطاب الزهراء ﷺ (بيروت: دار الفكر المعاصر, د.ت.), ٩٨.
٨ الجرجاني, عبدالقاهر. دلائل الإعجاز, تحقيق. محمد خفاجي, ط١ (مكتبة القاهرة, ١٩٦٩), ١٠٥.
٩ السبحاني, الخطبة الفدكية نص وتحليل, ٧٨.

لقد عبَّرت الزهراء ﷺ بهذا التصوير عن حالة الضعف والهوان والذّلِّ التي كان يعاني منها المسلمون قبل الإسلام، فالكناية في أصل الوضع "هي أن تتكلَّم بشيءٍ وتريد غيره"[١٠]، فكنَّت بلفظ "على شفا حفرة من النار" عن حالة الكفر السابق التي عاشوا فيها، فقد كانوا على مشارف جهنَّم لكفرهم وشركهم، ومذقة الشارب كناية عن صغر شأنهم، فقد كانوا أذلَّاء يتخطَّفهم الناس من حولهم، وقبسة العجلان كناية عن الحقارة والقلَّة. وهذه الصورة حسِّيَّة تبيِّن المدَّة الزمنية التي عاش فيها الكفَّار قبل الإسلام، وحالة الهوان التي كانوا يعيشون فيها.

وفي هذه الكناية البديعة تنقل دلالة المعنى المجرَّد للذلِّ والضعف إلى واقع المشاهدة الحسِّيَّة.

وفي الحقيقة إنَّ الكناية هي أكثر الأساليب التي استعملتها فاطمة الزهراءﷺ في خطبها، وذلك بسبب ما لها من محاسن عديدة لا يبلغها إلَّا كلُّ بليغ متمرِّس.

فضلًا عن أنَّ الكناية طريقة للتعبير عن المراد ولكن بشكل ضمنيٍّ غير مباشر، فهي تجعل المتلقِّي إلى إعمال ذهنه واستكناه المعنى، ومحاولة لفهم المعنى ومعنى المعنى.

ونلحظ في الشاهد السابق أيضًا أسلوب الإيحاء والرّمز، وعمدت الزهراء ﷺ إلى الرمز لأنَّ معظم الدلالات التي يراد إبرازها إلى السامع تكون حينًا من التنوُّع والعمق والشمول فتبعث في نفسه الملل، وفي حالة لمِّ تلك الدلالات وضغطها في عبارات مكثَّفة ذات إيحاء يتداعى الذهن من خلالها إلى أكثر من دلالة، فالإيحاء يعني أن تستخلص وتستنتج من عبارة واحدة عشرات المعاني، ونلحظ أنَّ الأسلوب الذي يقوم عليه القرآن الكريم وخطب أهل البيت هو استخدام العبارات الرمزيَّة لتفتح المجال لكلِّ شخصٍ أن يستخلص منها المعاني التي تناسب خبرته الثقافيَّة. فأرادت من استخدام الرمز أن تجعل ذهن المتلقِّي يختار المعنى الأقرب إلى ثقافته، والذي يوضِّح له الحال الذي كانوا عليها قبل الإسلام. فبدلاً من أن تأتي بألفاظ كثيرة لتصوِّر حالهم، رمزت إليه بعبارات قليلة اللَّفظ كثيرة المعنى.

١٠ ابن الأثير, المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر, تحقيق. أحمد الحوفي و طبانة بدوي (مصر: دار النهضة, د.ت.), ٣/ ٥٣.

الاستعارة والتشبيه:

إنَّ هذا الفنَّ يحتاج إلى التّأمُّل في النّصّ بسبب خفائه، وعدم بيان دلالة التراكيب إلَّا بعد القراءة والفهم والتّحليل.

وقد ظهرت الاستعارة في خطبة الزهراءﷺ بشكلٍ جليٍّ مميَّز وقصديَّةٍ واعيةٍ تهدف إلى التأثير في حشود المتلقّين. ففي قولها: "فَرَأى الأُمَمَ فِرَقاً في أدْيانِها، عُكَّفاً على نيرانِها، عابِدَةً لأَوثانِها، مُنْكِرَةً لله مَعَ عِرْفانِها". [١١]

تظهر الاستعارة في التّعبير عن تعلُّق الأمم بالباطل وتصرُّفاتهم الخاطئة، والحال التي كانوا بها قبل الإسلام. فتعبيرها "عُكَّفاً على نيرانِها" تصوِّر تمسُّكهم بالباطل وعبادتهم النيران كمن يقدِّس شيئًا خطيرًا مدمِّرًا. فالنار التي قصدتها هنا ليست مجرَّد عنصر ماديٍّ، بل إنَّها رمزت بها إلى ما يدمِّر الإيمان الحقَّ. في صورة وكأنَّهم لا يفقهون شيئًا، يسعون إلى ما فيه هلاكهم. وبرز الطباق في قولها "منكرة لله مع عرفانها" وذلك لغرض تنبيه المسلمين من الغفلة التي تصاحب الإنسان، فالفطرة تعترف بوجود الله، ولكن يطمسون تلك الفطرة بممارساتهم الجاهليَّة التي تفتقد إلى إعمال العقل والتّفكُّر والتدبُّر. فيصير التناقض بين النفس والأفعال التي تنكر تلك الفطرة.

وتحمل العبارة أيضًا نوعًا من التشبيه، وإن كان غير ظاهر بأداة واضحة (مثل الكاف أو نحوها) فهو ضمنيٌّ يصوِّر حال الأمم ممَّن يلتفُّون حول نارٍ ضالَّةٍ، وكأنَّهم عبيدٌ مأسورون لمصدر الفناء.

وفي قولها: "ألا وقد قلت ما قلت على معرفة مني بالخذلة التي خامرتكم، والغدرة التي استشعرتها قلوبكم" [١٢]

تبرز الاستعارة من خلال التعبير عن الخذلان الذي خالط إيمانهم، فهم لا يؤيِّدون حقَّها في المطالبة بإرث والدها فأصبح منهم كالخليط الذي يصعب فصل مكوِّناته.

وتعبيرها "الغدرة التي استشعرتها قلوبكم" تعبير عن غدرهم الذي صار كالثوب الملاصق للبدن وتصويرهم هكذا يؤكِّد موقفهم نحوها، فقولها هذا ما جاء إلَّا بعد ما رأته من موقفهم تجاهها.

---

١١ الحكيم, محمد رضا. تأملات في خطبة الزهراء ﷺ (قم: دار الزهراء, د.ت.), ١١٢.

١٢ الحكيم, محمد باقر. شرح الخطبة الفدكية (قم: دار العلوم, د.ت.), ٢١٢.

ج- ظاهرة الاستفهام:

يُعدُّ الاستفهام من أكثر الأساليب الموجودة في الخطب، "فهو طلب العلم بشيء لم يكن معلومًا من قبل بأداة خاصَّة"[١٣] إلَّا أنَّ هذا المعنى لم يكن مَّما قصدته الزهراء ﷺ في خطبها، فقد توالى لأغراض مجازيَّة كثيرة من التوبيخ والتقريع والتعجُّب والنهي، وذلك لأنَّ هذه الخطب موجَّهةٌ إلى قوم خالفوا طريق الحقِّ. وهذا دليلٌ على أسلوبها المتين ومستواها البلاغيِّ العالي. ففي قولها: "أفحكمَ الجاهليَّة تبغون" [١٤]

فالاستفهام هنا خرج إلى الإنكار، فبعد ما لقيته فاطمة الزهراء ﷺ من المسلمين بعد وفاة والدها صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، جعلت سؤالها هذا ممَّن ينكر إرثها من والدها، فهو حكم ربَّاني واتَّبعت قولها هذا بالآيات المباركة المختصَّة بالإرث، وهم إن أنكروا حقَّها معناه أنَّهم ينكرون المبادئ الإسلاميَّة التي يقوم عليها الإسلام والتي جاء بها كتاب الله ﷻ، وبذلك هم يريدون العودة إلى حكم الجاهليَّة. فغرض السؤال هو لإنكارهم ضروريَّات الدين الإسلاميِّ الأصيل، واتِّباعهم أحكامًا جاهليَّة مستبدَّة.

والملحوظ في الشاهد السابق أنَّ الزهراء ﷺ قد وظَّفت أسلوب الاستفهام الوارد في الآيات القرآنيَّة، فاعتمدت على النقل الحرفيِّ من النَّصِّ القرآنيِّ، وكان هذا التوظيف ممَّا يناسب سياق الخطب.

المبحث الثاني: التأثُّر بالقرآن الكريم ومضامينه:

إنَّ موضوع الخطب عند فاطمة الزهراء ﷺ موسوعةٌ ثقافيَّةٌ متنوِّعةٌ، لما تضمَّنته تلك الخطب من موضوعات عديدة أضاءت فيها على جوانب متعدِّدةٍ من الحياة السائدة عند الناس. "فالنَّصُّ الفنِّيُّ لا يتوجَّه إلى جانب معين في نفس المتلقِّي وإنَّما هو موجَّهٌ إليه ككينونةٍ، من عقل وحسٍّ ونفسٍ"[١٥]

فظهرت مقدرتها الكبيرة من خلال التنقُّل من موضوع إلى آخر ومن مفهوم إلى آخر، دون الإنقاص من حقِّه، وكلُّ ذلك بالقلَّة من العبارات والغزارة من المعاني، وهو ما ينمُّ عن حسِّها البيانيِّ العالي.

١٣ عتيق, عبدالعزيز. علم المعاني, د.ط. (بيروت: دار النهضة العربية, ١٩٨٥), ٩٦.
١٤ الكوثراني, أحمد. الخطبة الفدكية، كتاب بلاغة الزهراء ﷺ (بيروت: دار المحجة البيضاء, د.ت.), ١٤٥.
١٥ الراغب, عبدالسلام. الصورة الفنية في القرآن الكريم, ط١ (حلب: فصلت للدراسات والترجمة والنشر, ٢٠٠١), ٤٣٧.

ولذلك جعلت فاطمة الزهراء ﷺ خطبها مشتملةً على مضامين مستمدَّة من القرآن الكريم، فجاءت تلك المضامين بأشكال مختلفة؛ إمَّا نصًّا أو معنى أو إشارةً إلى معنى. وهذه المضامين هي:

١- إبراز القيم الإسلاميَّة.

٢- بيان دور النبيِّ في هداية الأمَّة.

٣- التحذير من ترك النصوص السماويَّة.

أوَّلًا: إبراز القيمِ الإسلاميَّةِ:

إنَّ المسعى الأوَّل والأخير في خطب السيِّدة الزهراء ﷺ هو مخاطبة العقل للمتلقِّين، وتأكيد رأيها وإثباته بالأدلَّة والبراهين، فكان لا بدَّ لها من تذكير المسلمين بأهمِّيَّة القيم الإسلاميَّة، والخير الذي أصابهم بعد دخول الإسلام، وكيف أنَّ الإسلام حثَّهم على القيم الأخلاقيَّة وشجَّع عليها، وهي في موقفها بحاجة إلى تذكير من غلبه هواه بتلك القيم التي جاء بها القرآن.

ففي خطبتها تقول: "فجعل الله الإيمان تطهيرًا لكم من الشرك، والصلاة تنزيهًا لكم عن الكبر، والزكاة تزكية للنّفس، ونماءً في الرزق"[١٦].

فبداية قولها، وجعل الله الإيمان تطهيرًا لكم من الشرك تأكيدٌ على أنَّ الإيمان والإسلام قد أزاحوا ظاهرة الشرك التي كانت تسود في المجتمع الجاهلي، فكان الإيمان بمثابة عمليَّة تطهير لهم، وفي قولها عمدت إلى كلمة الشرك، وذلك لأنَّ المعنى الدلاليَّ لهذه الكلمة يخالف ما يقوم عليه الإيمان من توحيد ﷻ وتقديسه.

وتستمرُّ في حضِّها على القيم فتجعل من الصلاة لازمًا أخلاقيًّا، والصلاة تنزيهًا عن الكبر، فهو إشارة إلى أنَّ الصلاة هي من تقوم بتزكية النفس وإبعادها عن كلِّ ما ينكره العقل والشرع، فالكبر هو خلق مذموم لا يقبل في الإسلام، وبذلك تقوم الصلاة بوظيفة أخلاقيَّة تترك أثارًا إيجابيَّة على الفرد والمجتمع.

وهو ما قال به الله ﷻ في كتابه:﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت : ٤٥) فقد ظهر التأثُّر الدينيِّ في خطابها، وعمدت إلى ذلك أي المؤثِّرات الدينيَّة لأنَّ التأثير الدينيَّ راسخ في فكر المتلقِّين، فقدَّمتها لجذب انتباههم وأسماعهم. وإنَّ بحثنا عن المعنى المشترك بين الآية والغرض

١٦ الفضلي, بلاغة فاطمة الزهراء ﷺ ١٧٢.

من ورودها في الخطبة هو ما تحمله أفعال الصلاة من "الثناء على الله والاعتراف بالعبوديَّة له (.....) كلُّها تذكِّر بالتعرُّض إلى مرضاة الله والإقلاع عن عصيانه وما يفضي إلى غضبه"[١٧] فهي بذلك ترمي إلى الإشارة إلى فعلهم الذي يخالف ما جاء به الشرع.

ويحصل الأمر ذاته مع الزكاة، فآثار الزكاة جمَّة على الأفراد والمجتمع، من تقوية روابط الأفراد، ونشر المحبَّة والتسامح، ناهيك عن تطهير النفس من تعلقها بالزائل من الدنيا، فيكون أثرها روحيًّا على الفرد من حيث أنَّه ينفق من أحبِّ الأشياء إليه. ويحضر أيضًا المعنى الوارد في قوله تعالى:﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم﴾ (التوبة: ١٠٣)

والتّناصُّ في الشّاهدِ السَّابقِ كان عن طريق الإشارة المركَّزة للآيات القرآنيَّة دون الحضور اللَّفظيِّ الكامل لها، فلم تقتصر في خطبها على التضمين المباشر للآيات فقط، وإنَّما امتدَّ ليشمل نوعًا آخرَ يدركُ وجودَ النَّصِّ القرآنيِّ في تشكيلِ الخطبِ البيانيّ، وهذا النوع بحاجةٍ إلى التأمُّلِ والتّدبُّرِ وامتلاكِ ثقافةٍ قرآنيَّةٍ يستطيعُ المتلقِّي العودةَ إلى النصِّ القرآنيِّ الذي يحملُ النّصَّ المقتبسَ.[١٨]

فنرى كيف أنَّها وظَّفت الألفاظ الإسلاميَّة، فجاءت متناسقة متوالية، بالمعنى واللَّفظ مرتبطة ببعضها البعض، فاستطاعت من خلالها أن تصوِّر القيم المرتبطة بالإسلام والقيم التي ارتبطت بالجاهليَّة، فأسهم النَّصُّ في إبراز سمة التَّضادِّ بين الإيمان والشرك، والصلاة والكبر، فعكست الإصلاح الذي جاء به الإسلام.

ثانيًا: بيان دور النبيِّ في هداية الأمَّة:

إنَّ المدقِّق لمواضيع الخطب عند السيِّدة الزهراء ﷺ يرى أنَّها لا تنفكُّ عن ذكر أبيها مُحَمَّد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، والنعم التي أنعمها الله به عليه وعلى المسلمين من خلاله.

فتقول: "قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عليْكُم بالْمُؤمنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ"[١٩]

١٧ ابن عاشور, التحرير والتنوير (تونس: الدار التونسيّة للنشر, ١٩٨٤), ١٠٣.
١٨ أحمد طعمه حلب, التناص بين النظرية والتطبيق، شعر البياتي نموذجًا (دمشق: منشورات وزارة الثقافة, ٢٠٠٧), ١٨١.
١٩ الفضلي, بلاغة فاطمة الزهراء ﷺ, ١٦٣.

جاء هذا القول بعد أن عرَّفت عن نفسها "أَيُّهَا النَّاسُ اعْلَمُوا أَنِّي فَاطِمَةُ، وَأَبِي مُحَمَّدٌ، أَقُولُ عَوْداً عَلَى بَدْءٍ، مَا أَقُولُ غَلَطاً، وَلا أَفْعَلُ مَا أَفْعَلُ شَطَطاً"[٢٠] وهي في هذا المقام لا تحتاج لتقول من هي، ولكن الغاية هي التأكيد والتّذكير بنسبها ومقامها، ثُمَّ أردفت بالقول السابق متضمِّنة قولها نصَّ القرآن الكريم، فاعتمدت على النّقل الحرفيِّ من النّصِّ القرآنيِّ وذلك لما يشكِّله من درجةٍ عاليةٍ من البيانِ والإفهام، ووحدة متماسكةً بين المبنى والمعنى، إذ إنَّها عرضت في قولها الآية لتدعم موقفها، ولتذكِّر بمدى الرأفة التي أحاطهم بها والدها النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، واقتضى المقام الاقتباس من آيات الذكر الحكيم ليكون المعنى والمراد أوثق في النفوس، ولهذا السبب يسارع الخطيب لتضمين نصَّه بالآيات القرآنيَّة نظرًا للقدرة الكبيرة للنفاذ إلى نفوس المتلقِّين والتأثير بها.

والغرض من الاستشهاد بالنصِّ القرآنيِّ في مضمون خطبتها هو بيان دور النبيِّ مُحَمَّد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في هدايتهم ورأفته بحالهم وحرصه على ألَّا تصيبهم مخمصة أو أذى، وما صبره على أذى المشركين إلَّا من أجل هدايتهم.

وتابعت في خطبها تذكيرهم بحالتهم ووضعهم قبل مجيء خاتم الأنبياء والمرسلين وكيف جعلهم أصحاب حقٍّ فتقول: "وكنتم على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام"[٢١]

وهنا تشير السيِّدة الزهراء ﷺ إلى فضل النبيِّ على المسلمين، فتعود إلى تذكيرهم بحالهم قبل مجيئه، وقبل أن يهديهم الله بإرسال النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم. فقد كاد هؤلاء القوم يموتون على كفرهم، فدلالة التشبيه الذي وصفتهم به الزهراءﷺ ما هو إلَّا تصوير يدلُّ على حالة المذلَّة والضعف التي كانوا بها.

وما أُخرجوا من حالتهم تلك إلَّا بعد أن أرسل الله نبيَّه مُحَمَّد ﷺ فجعلهم أسيادًا بين القبائل، وما قولها هذا إلَّا إشارة إلى النَّصِّ القرآنيِّ الآتي:﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٣) فالتّناصُّ هنا معنويٌّ، إذ أنَّها ضمَّنته آيات الذكر الحكيم، وهو لم يكن حرفيًّا بل دلَّ عليه السياق، فقد وظَّفت الزهراء ﷺ المعاني القرآنيَّة

٢٠ السبحاني, الخطبة الفدكية نص وتحليل, ٨٣.
٢١ السبحاني, ٨٧.

في خطبها وأدرجتها فيها، وجعلت بأسلوبها تلتئم بالمعنى الذي تريد إيصاله إلى المستمعين من بيان أوضاعهم في ظلِّ الكفر والجاهليَّة، وفي الحقيقة إنَّ هذا التّناصَّ ولا سيَّما أنَّها حافظت على صيغة الضّمير نفسها في الآية، جعل من معاني الخطبة أشدُّ استقرارًا في النفوس، وأبلغ تأثيرًا فيها.

وتتابع وصف حالهم، وكيف تغيَّر بعد قدوم النبي فتقول: "وَكُنْتُمْ تَعْدُونَ مِنَ الْمُسْتَعْبِدِينَ تَشْرَبُونَ الطَّرْقَ، وَتَقْتَاتُونَ الْوَرَقَ، أَذِلَّةً خَاسِئِينَ، تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِكُمْ" [٢٢]

والمقصود من قولها وصفهم بخباثة المشرب، وشجب المأكل وذلك لعدم اهتدائهم إلى ما يصلحهم في دنياهم، وقلَّة ذات يدهم وخوفهم من الأعداء. وهو استلهام لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (الأنفال: ٢٦) ومن المثير للانتباه هو أنَّ الزهراءﷺ لم تغفل هذا الجانب من الخطبة، بل أيَّدته بالاقتباس الضمنيِّ الدلاليِّ غير المباشر من القرآن الكريم، فكان السياق القرآنيُّ غير المباشر متوافقًا والسياق العام لمقصد الخطبة.

ثالثًا: التحذير من ترك النصوص السماويَّة:

إنَّ المقام التي كانت به السيِّدة الزهراء ﷺ فرض عليها ضمن خطبها أن تحذِّر من عاقبة ترك النصوص السماويَّة، فنلحظ أنَّها في الخطب دائمًا ما نبَّهت إلى هذا الأمر بشكل مباشر أو غير مباشر.

ففي قولها: "أَيُّهَا النَّاسُ اعْلَمُوا أَنِّي فَاطِمَةُ، وَأَبِي مُحَمَّدٌ، أَقُولُ عَوْداً عَلَى بَدْءٍ، مَا أَقُولُ غَلَطاً، وَلا أَفْعَلُ مَا أَفْعَلُ شَطَطاً". [٢٣]

في قولها هذا بعد أن سألتهم إرثها من أبيها، ودعَّمت كلامها بالنصوص القرآنيَّة، عرَّفت بنفسها وهي الغنيَّة عن التعريف توكيد الفكرة التي جاءت من أجلها، وأردفت من ثمَّ ما يتطلبه السّياق "ما أقول غلطًا" أي أنَّها ما تقول ألَّا الصحيح من القول، وكلامها لا يصدر إلَّا عن بصيرةٍ وحكمةٍ وهو مطابقٌ للواقع. ولا تفعل إلَّا الصحيح من الفعل، وهذه هي الحقيقة ولكنَّها أرادت أن تؤكِّد هذا للمتلقِّين. وليس ذلك إلَّا من أجل إزالة كلِّ بواعث الشَّكِّ من نفوسهم فقولها يتعارض مع ما هم مقدمون عليه.

٢٢ الشيرازي, الخطبة الفدكية وتحليل دلالاتها, ١٣٥.
٢٣ السبحاني, الخطبة الفدكية نص وتحليل, ٨٣.

وأضمَّت السيِّدة الزهراء ﷺ هذا ما هو تحذيرٌ لهم بأنَّ ما يقدمون عليه من الفعل يخالف مبادئ الإسلام وكتاب الله.

أمَّا قولها: "فاتَّقوا الله حقَّ تقاته ولا تموتُنَّ إلَّا وأنتم مسلمون"[٢٤]

فقد وجَّهت كلامها إليهم مباشرةً، فمقامهم هو إنكار حقِّها، فاستخدمت النّصَّ القرآنيَّ لتدعِّم رأيها ويتَّقوا الله، وألَّا يخالفوا المبادئ التي نزل بها القرآن الكريم، فيخرجون من دين الإسلام.

ويظهر التأثُّر بالذكر الحكيم ومضامينه جليًّا بعد هذا العرض، فاقتبست من الآيات القرآنيَّة ما هو مناسب لسياق الخطبة التي كانت في صددها، وما تنقُّلها بين الاقتباس النّصيِّ (المباشر) والمعنويِّ (غير المباشر) إلَّا دليلٌ على قدرتها البلاغيَّة العالية، فضلًا عن قدرة الخطاب القرآنيِّ على مخاطبة المستويات الاجتماعيَّة والثقافيَّة كافَّة.

٢٤ الكافي, سيميائية خطاب الزهراء ﷺ, ٩٨.

النتائج:

بعد دراسة تشكُّل المعاني في خطب فاطمة الزهراء ﷺ، وصل هذا البحث إلى جملة من النتائج:

١- لقد نوَّعت فاطمة الزهراء ﷺ بالألفاظ، فجاءت متناسقةً متواليةً، بالمعنى واللفظ، وهذا ما أسهم في تعدُّد الدلالات في الشواهد السابقة، فضلًا عن القوَّة ووحدة البناء وإصابة المعنى الدلاليِّ، فكانت مرتّبةً ترتيبًا يؤدِّي إلى الغرض المنشود.

٢- اعتمدت الزهراء ﷺ في خطبها التقنيَّات التصويريَّة ولا سيَّما الاستعارة والكناية، فكانت هذه التقنيَّات مجالًا مهمًّا وذلك من أجل تصوير مختلف الدلالات من بيان حالهم قبل الإسلام والضلال الذي كانوا به في الجاهليَّة.

٣- إنَّ اعتماد فاطمة الزهراء ﷺ في خطبها على التوازي التركيبيّ أبرز دورًا مهمًّا في تواءم الألفاظ، وبيان دقَّة المعاني.

٤- جعلت الآيات القرآنيَّة دليلًا قويًّا في خطبها وحجاجها، فقد استخدمتها من أجل إثبات حقِّها مخاطبة بذلك عقول المتلقِّين. فظهر تأثُّرها بالقرآن الكريم من خلال الاقتباس المباشر وغير المباشر للآيات القرآنيَّة، ولهذا أهمِّيَّةٌ في التركيز على فهم القرآن الكريم وأساليبه في تشكيل الثقافة البلاغيَّة والخطابيَّة والدلاليَّة في العصور الإسلاميَّة.

٥- استثمرت فاطمة الزهراء ﷺ المعاني القرآنيَّة في خطبها، وذلك من خلال توظيف الآيات القرآنيَّة لتوصل المعاني التي تريدها إلى المتلقِّين.

٦- امتلكت فاطمة الزهراء ﷺ حسًّا بلاغيًّا عاليًا فاستطاعت الوصول إلى المعاني التي تريدها باستخدام أكثر الظواهر البلاغيَّة تأثيرًا في المتلقِّين.

المصادر:

القرآن الكريم

ابن الأثير. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. تحقيق أحمد الحوفي وطبانة بدوي. مصر: دار النهضة, د.ت.

ابن عاشور. التحرير والتنوير. تونس: الدار التونسيّة للنشر, ١٩٨٤.

الجرجاني, عبدالقاهر. دلائل الإعجاز. مصر: المطبعة المحمودية التجارية, د.ت.

الجرجاني, عبدالقاهر. دلائل الإعجاز. تحقيق محمد خفاجي. ط١. مكتبة القاهرة, ١٩٦٩.

الحكيم, محمد باقر. شرح الخطبة الفدكية. قم: دار العلوم, د.ت.

الحكيم, محمد رضا. تأملات في خطبة الزهراء عليها السلام. قم: دار الزهراء, د.ت.

الخطيب, عبدالكريم. الإعجاز البياني للقرآن. بيروت: دار المعرفة, ١٩٨٠.

الراغب, عبدالسلام. الصورة الفنية في القرآن الكريم. ط١. حلب: فصلت للدراسات والترجمة والنشر, ٢٠٠١.

السبحاني, جعفر. الخطبة الفدكية نص وتحليل. قم: مركز النشر الإسلامي, د.ت.

الشيرازي, سعد. الخطبة الفدكية وتحليل دلالاتها. بيروت: دار المرتضى, د.ت.

الفضلي, عبدالهادي. بلاغة فاطمة الزهراء عليها السلام. بيروت: دار الهادي, د.ت.

الكافي, محمد رضا. سيميائية خطاب الزهراء عليها السلام. بيروت: دار الفكر المعاصر, د.ت.

الكبيسي, طراد. جماليات النثر الفني. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامّة، سلسلة الموسوعة الصغيرة, د.ت.

الكوثراني, أحمد. الخطبة الفدكية، كتاب بلاغة الزهراء عليها السلام. بيروت: دار المحجة البيضاء د.ت.

حلبي, أحمد طعمه. التناص بين النظرية والتطبيق، شعر البياتي نموذجًا. دمشق: منشورات وزارة الثقافة,٢٠٠٧.

عتيق, عبدالعزيز. علم المعاني. د.ط. بيروت: دار النهضة العربية, ١٩٨٥.